ضحك الآلام فى مذكرات بيرم

بقلم: محمد البحرى

قراءة فى «**مذكرات بيرم التونسى فى المنفى**»[1] لا تخلو من تعقيد التفاعل بين النص ومقاربته، وهو تعقيد يستمد عناصره، مما يتضمنه النص ككتابة، بالمعنى الموسع لمفهوم الكتابة، وما تحمله القراءة من نصوص، أو مشاريع نصوص، تسكن دواخل كل قارئ.

ومن أوجه هذا التعقيد، أنه بينما تروم القراءة بنصوصها ومرجعياتها ومشروعاتها، كشف أبعاد متنوعة، وفتح آفاق ممكنة فى هذه المذكرات، يجابهها نصها بجملة من «المسائل ـ المشكلات» لعل أشدها إلحاحاً، مسألة الجنس الأدبى، أو ما يشابه الجنس الأدبى.

ذلك أن هذه المذكرات، نشرت كما هو معروف، فى ثلاث جرائد تونسية[2] فى فترات متباعدة نسبياً.

وعليه فهى تنتمى إلى جنس المقال كمحاولة أولى، وهذه المقالات الصحفية تتصل فى معظمها، بحياة صاحبها فى منفاه بفرنسا، فهى من هذه

(١) مذكرات بيرم التونسى فى المنفى، الدار التونسية للنشر. الطبعة السابعة ١٩٨٩ وعليها جميع الإحالات فى هذه المداخلة.

وأشير هنا إلى أنها أزيد على الطبعة الشرقية: الصفحات الضائعة في تونس بثلاثة نصوص على: «الزواج» ـ وينقص نصف العمود «في باريس» ولا أدرى لماذا تسمى «ضائعة» والحال أنها طبعت سبع مرات منذ سنة ١٩٦٢م.

(٢) الزمان ـ الشباب ـ السردوك.

الوجه، أقرب إلى فن الترجمة، أو السيرة الذاتية[1].

ولكن هذه السيرة المذكورة، حدثت فى معظمها خارج الوطن[2]، فهى إذن أشبه بأدب الرحلات، أضف إلى هذا كله، أن نشرها من قبل المؤلف فى الصحف، جاء متأخراً نسبيّاً عن زمن حدوثها، فهى من هذا الوجه تنتمى إلى جنس المذكرات، كما يدل على ذلك عنوان الطبعة التونسية، هذه إذن أوجه مختلفة لطبيعة النص.

فأى سبيل تسلكه القراءة إذن؟

لنترك الجواب إلى حين.

وهذا الوجه الأخير، ونعنى به جنس المذكرات، يثير لدى القارئ مساءلة، لا تخلو من تعقيد وحيرة، ذلك أن المذكرات، فى صورتها التى وصلت إلينا، تنقل أحداثاً واقعية عاشها المؤلف، فنحن لا نشك فى عملية نفيه من وطنه، ولا فى عيشه مدة طويلة فى فرنسا.

ونحن نجد بعضاً من المذكرات مؤرخاً ونعنى الأولى والثانية[3]، كما أننا نطالع فى مذكرة «الجوع» هذه الجملة «**وقبل الليلة التى أدون فيها هذه الكلمات رقدت بلا عشاء**»[4] كل هذا وغيره من المعطيات، دليل على واقعية النص بمعنى «إحداثيته»، أى أنه نقل وتصوير لأحداث واقعية مادية، وفكرية عاشها المؤلف حقيقة، فى زمن ومكان معينين.

(١) انظر: إحسان عباس: فن السيرة ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ د. ت ويحيى عبدالدايم: الترجمة الذاتية في الأدب العربى الحديث دار إحياء التراث العربى ـ بيروت ١٩٧٥م.

(٢) باستثناء مذكرة: أحرج المواقف «ص ٣٦٧» التي وقعت أحداثها في مصر.لا أنها تندرج ضمن «الرحلة» إلى الوطن» فهي بهذا الاعتبار «رحلة».

(٣) ص ى و ص أ ح من المذكرات.

(٤) المذكرات ص ٤٦ .

إلا أن هذا الواقع، يبقى رهين نص المذكرات، بمعنى أنه يبقى رهين لغة هذا النص، وبنيته وخصائصه الفنية، وهذا يعنى أننا لا نقارب واقعاً، بل نقارب حديثاً فى هذا الواقع.

والحديث فى الظاهرة، ليس الظاهرة نفسها، والواقع المعاش، ليس الواقع المروى، إنه يتحول إلى مفاد للنص، للكتابة.

عاش المؤلف فى المنفى من الأيام آلافاً، ومن الأحداث والأوضاع والعواطف ما لا يحصى، فلم اختار بالذات بعضاً يسيرا منها؟ ولذا انتهج فى الكتابة عنها نهج الإضحاك، وما يحف بالإضحاك، من مفاهيم الدعابة والسخرية والتهكم.

إننا نذكر هذا القول، أننا أمام عمل فنى، وقراءتنا بالتالى، ليست تأريخاً ولا تخليداً لتاريخ أو أحداث، وإنما هى محاولة لمقارنة فن نص، وهذا ما يشرع لها، اختيار جانب من مضامين النص وأشكاله، دون غيره من الجوانب، ونعنى به، **ضحك الآلام فى نص المذكرات.**

إن قراءة أولية فى نص المذكرات، تسجل ظاهرتين هامتين تمثلان أخص خصائصه، نعنى المفارقة، والمفاجأة.

ونلاحظ أولاً أن المفارقة هنا تتنزل على مستويين، أولهما عام يتمثل فى انخرام الوضع، وضع حياة المؤلف، إذ هى أوضاع رجل منفى، هذه «المفارقة ـ الانخرام» هى التى أملت النص، وكان من الممكن أن تسلك به، سبل الحزن والشكوى، وما إليهما من مفاهيم، عودتنا عليها الكتابات الوجدانية، مثلما نجد عند «أبى حيان التوحيدى» أو «المنفلوطى».

أما المستوى الثانى من هذه المفارقة، فهو انزياح ظريف من المؤلف، وهو الذى يعنينا فى هذه المداخلة، إذ أنه منبع الضحك وأساسه، ويتمثل فى أسلوب تعامل بيرم، مع الحياة والناس والفن، وهو هذا الأسلوب الهزلى

الطريف، الذى سنتحدث عنه فيما يلى من فقرات.

ولعل أول أوجه هذه المفارقة، قراءتنا نفسها: إذ كيف نبحث عن ضحك، فى مذكرات رحل منفى مشرد؟

وعن هذه المفارقة، تقول المفاجأة وتتمثل فى انزياح كبير للنتائج، أو المنتظر عما كان من المفروض أن تكون، وبعبارة أخرى تتمثل فى خيبة الانتظار.

إن الظاهرتين المذكورتين، تمثلان ميزة ملحوظة فى نص المذكرات، وقبل أن نفصل فيهما الحديث، يستوقفنا سؤال نكتفى بطرحه: ألا تسمح خاصية المفاجأة لنصوص المذكرات، بالانتماء إلى جنس الأقصوصة؟ هذه إمكانية أخرى، نضيفها إلى ما كنا ذكرناه سابقاً: من قضية الجنس الأدبى.

يحدد المختصون[1] ثمانية دوافعَ وأسساً كثيرة للضحك، لعل أهمها ظاهرة التقلب الآلى فى فكر الإنسان، وكلامه وحركاته، أى انعدام المرونة اللازمة للتأقلم مع التجدد الأبدى، فى الحياة والفكر والمجتمع، ومن أهمها أيضاً ظاهرة التشيؤ فى الإنسان، وهى ناتجه عن هذا التصلب، ومنها تداخل السلاسل[2] وخيبة الانتظار.. إلخ.

كل هذا ينتج المفارقة والمفاجأة، اللتين يعتمدهما الفنان، بوساطة هزل الكلمات، وهزل المواقف والصور[3]، وهذا الهزل، الذى يمكن إرجاعه بصفة عامة، إلى ظاهرتين الدعابة والسخرية.

وإذ نكتفى بهذه الإشارة العامة والموجزة.

---

(١) يقول لحافظ «يأتى الضحك في انتظار «فجاة إلى لاشيء»: أنظر للفرى برفسون.

(٢) اعتمدت فى مفاهيم الضحك والدعابة والسخرية بصفة أساسية علي كتابي «معجم الشعرية والبلاغة».

(٣) المصدر السابق ص ٧٨ وما بعدها.

فليس هدفنا تحليل آليات الضحك ووسائله، فقد تكلم فيه أهل الاختصاص وأفاضوا، وإنما هدفنا، اعتماد أمثلة من «المذكرات» رأينا أنها تمثل نماذج، لفن الإضحاك الأصيل، عند بيرم التونسى.

ولنبتدئ بظاهرة التهكم المضحك، إن التهكم عموماً، هو قراءة نقص فى الموضوع، أى فى الطرف المغاير لذات المتكلم، هذه القراءة تعتمد هزل العبارة، بقدر ما تعتمد هزل الأفكار، والمواقف والصور، لننظر فى «تكرم» الحكومة الفرنسية على بيرم بـ «تذكرة الدرجة الرابعة» تذكرة «السطح والقاع»[1].

هذه المفارقة التهكمية، بين الجهد العظيم «التكرم»، ونتيجتها الهزلية، مثار للضحك، وهى فى نفس الوقت، مزيج من الغضب والاحتقار، إنها تحمل فى ذاتها، نزعة حب العدل والحق ـ فى الكرم ـ وتفصح عن دونية الواقع، هذه المفارقة تتسم بها عبارات هزلية، فى نصوص كثيرة من المذكرات، نذكر منها أمثلة:

* الحكومة «تتكرم» بتذكرة أدنى الدرجات.
* مدير الجريدة «يتقدم» فى التقتير على المؤلف[2].
* «البيفتيك» بطاطة مسلوقة، مع كتل من اللحم الكريه[3].
* الفتى الشامى «يقسم» برأس الإله، وشارب الإله[4] إلخ..

هذه النماذج من العبارات الهزلية، إلى جانب تركيبها المثير للضحك، تعمل بسخرية مرة ـ بل كارثية، وتهكما لاذعاً، يعتمد المبالغة الخفية والقلب،

(١) المذكرات ص ٥٨.
(٢) أ. س ص ٤٥.
(٣) أ. س ص ٥٨.
(٤) م. س ص ٣١ وهذه الأمثلة في عمومها تشبه ما يسميه البلاغيون العرب الاستعارة العنادية أو التهكمية مثلما ورد في الآية الكريمة «وبشرهم بعذاب أليم».

«فالتكرم» و«التقدم» و«البيفتيك» و«القسم»، كلها تؤدى عكس ما ينتظر منها، أن نتيجتها المخيبة للأمل، قد تحير المتلقى، وتساؤله عما يقول المؤلف حقيقة.

ولكن لهزل العبارة أوجها أخرى، ففى هذا الحوار القصير، بين جورج الفتى اللبنانى والمؤلف:

ـ يابو انت كاثوليكى ولا أرثوذكسى؟

ـ قلت كاتوليكى(١).

يبدو الجواب «كاتونيكى» مضحكاً، بما يتسم به من آلية وتصلب، وكان المؤلف قاله فى حاله من السهونة، أخذ بصفة آلية، جزءاً من السؤال، وأعاده إلى السائل، ذلك لأن الفتى يطرح الجواب ـ الكاتوليكية ـ من خلال السؤال، فى الجواب إذن تهكم، وإذا كان سهو الفتى غير متعمد، يعرضه للضحك، فسهو المؤلف متعمد، يضحكنا من الفتى، بما أنه يقلده، وفى التقليد، إبراز للجانب الآلى المتصلب، من تصرف الإنسان أو كلامه.

وينبغى أن نفكر هنا إلى أن «احواب لن يكون مضحكاً، لولا علمنا بأن المؤلف مسلم، ذلك لأن الضحك يفترض خلفية تفاهم، بل خلفية تواطؤ بين المؤلف الهزلى، وبين ضاحك آخر، هو الجمهور المتلقى.

ولعل الصورة تزيدنا ضحكاً، إذا علما أن أم الفتى، لا تسأل المؤلف عن كاتوليكية ولا أرثوذكسية، ولا سُنة ولا شيعة، وإنما عن مصر، ونيل مصر، وفن مصر(٢).

لا يقتصر فن الإضحاك فى المذكرات، على هزل العبارة، إنه يظهر أيضاً فى مسخ الصورة أو ما يسميه بالكاركاتور.

(١) المذكرات ص ١٦.

(٢) م. س ص ١٦.

هذا الفتى الشامى، يقرب طوله من المترين، فى عرض مناسب[1] ولا يخفى الضحك فى عبارة «مناسب» التى تجعل «العرض» أقرب إلى المشروع منه إلى الواقع، فى هذا البعد، من أبعاد جسم الإنسان.

وهذا المهاجر الذى سمى نفسه «فيليكس» «أسمر وسيم، عليه شمائل الفعلة والزوافرية»،[2] هذا الرسم المشوه، يدخل فى فن الهجاء، وقد لا يثير ضحكنا، لولا المفارقة الماسخة بينه وبين العَلَم «فيليكس»، بما يعنيه من نسق الانتماء إلى حضارة راقية، ومجتمع متقدم، فهو يبرز مأساوية الالتقاء المشط والممسوخ، بين المعنوى ـ الاسم العلم ـ وبين المادى ـ سمات التسكع والانحراف.

وصورة المرأة المرسيلية العملاقة، رغم التأكيد على جمالها، لا تخلو من صبغة الكاركاتور، فهذه المرأة، تكفى الرجل، الذى يريد أن يتزوج أربع نسوة، مجموعات كلهن فى امرأة واحدة[3].

هل هذا الرسم، مسخ لصورة هذه المرأة؟ أقرب الظن، أنه مسخ ساخر، لذوق الرجل الشرقى، وهو دون أن يحسب بيرم أنه «سيبقى على مر الدهور»[4] وهو أيضاً صورة هزلية، عن عقلية الشرق، عقلية تعدد الزوجات، عقلية النهم الجنسى ـ والمرأة والجنس.

وللأحداث أيضاً نصيبها فى الضحك.

يخطب أبو نصر رئيس المهاجرين، فيأمر الحاضرين بالنوم، ثم يندس فى

---

(١) م. س ص ٣٠.

(٢) م. س ص ٥٩ الزوافريه كلمة دارجة تونسية جمع فردى قوي. تعنى متسكع ـ منحط ـ منحرف. وهى نقل للفظة الفرنسية التي تعنى العامل.

(٣) م. س ص ٢٩.

(٤) م. س ص ٢٩.

الفراش، وهو موقن بأن الركاب عملوا بنصيحته، فإذا بهم اتجهت أنظارهم جميعاً للفراش الأنيق[1].

ويمازح الطلبة المؤلف مزاحاً ثقيلاً، بالتنبؤ لهم بالإيقاف فى الميناء، وهو المنفى المتسلل إلى الوطن، فإذا به يمر بسلام، وإذا بالموظفين «حجزوا جميع الطلبة، لأنهم متهمون يومئذ بالاشتغال بالسياسة[2]، وكان بيرم التونسى، لا يشتغل بالسياسة.

هذه مجرد أمثلة داله على الإضحاك، عن طريق التهكم أو السخرية، وأذكر القارئ، أن غيرها كثير، وليس اختيارنا إياها، إلا على سبيل المثال.

والدعابة أين تكمن؟

هذه منبع آخر لا يجف من الضحك، والملاحظ أننا من خلال قراءتنا، تبينا أن المؤلف يسلك على وجه العموم، سبيل التحكم فى الحديث عن الظواهر الخارجية، وسبيل الدعابة، إذا تعلق الأمر بذاته وبتجاربه الخاصة.

على أن لكل من «التهكم» و«الدعابة» عند بيرم، دلالة خاصة، قد نتعرض إليها فيما بعد، ولكننا نقول هنا بإيجاز إنه يلجأ إلى الأولى قصد الإصلاح، فى غالب الأحوال، وإلى الثانية لمجرد انتهاج خفة الروح، أو فى حالات التعاطف، مع الموضوع.

تجارب بيرم الذاتية، تطغى عليها الدعابة الضاحكة المضحكة، ففى مذكرة «ليلة من ليالى فرونوبل»[3] المفارقة المضحكة، بين الجمود والنتيجة، مثلما أسلفنا القول، ولكن فى صورة الدعابة هذه المرة، فى ليلة دامسة الظلام،

(١) م. س ص ٢٤ .

(٢) م. س ص ٣٨ وهذا المثال ينطبق عليه ما يسميه برفون «الارتداء» كان يجمع السارق مسروقاً مثلاً.

(٣) م. س ص ص ٣٣ ـ ٣٥ .

شديدة البرد، وفى وحدة مرعبة، يجدد بيرم فكره، فيعدد احتمالات كثيرة، مما يعترضه فى الطريق الموحش هى:

١ ـ موسيقى صوفية.

٢ ـ موسيقى فلاحين شرقيين.

٣ ـ حفلة سكارى معربدين.

هذه الاحتمالات التى طوفت بالفكر، بين المشرق العربى، والغرب الأوروبى، تسفر عن نتيجة ضحلة، بقدر ما هى مفاجئة «وقطيع من الأبقار مساق إلى المجزر» أى براعة فى إضحاك الصورة والفكر، وخطة الأحداث والتصورات.

ولكن الأمر لا يتوقف عند هذا الحد، فالمؤلف يدعو «اللهم زدنى علماً»[١] وما العلم الذى يستزيده؟ أهو مزيد معرفة بالقطعان المساقة إلى المجازر؟

وفى مذكرة الجوع[٢] يجتهد فى شى البصلة «العزيزة» بوثائق عزيزة عليه، فإذا بها تفلت إلى أسفل متدحرجة، ولا تنضجع منها إلا القشرة.

وفى الباخرة يلفظ القهوة، لا لسوء مذاقها، بل لأنها ذكرته «بجرعة تناولها وهو طفل، على سبيل الفضول والعلم بالشىء، من ساجور قهوجى يغسل فيه الفناجين»[٣]، وأى شىء أكثر دعابة وإضحاكاً، من أن ترتد حياة الفرد فجأة، إلى الطفولية، ولهوها وأخطائها وطيشها[٤].

---

(١) وردت العبارة الكاملة على هذا النحو: ضحكت من نفسى وقلت «اللهم زدني علماً» وهي عبارة تخرج صاحبها من موضوع الضحك أي انه لم يمكن القارئ من أن يضحك منه.. كما أنه سبقه بالقول «ضحكت من نفسى» وهذا هو معنى الدعابة.

(٢) المذكرات ص ص ٤٥ ـ ٥٠.

(٣) م. س ص ١٧.

(٤) ظاهرة الطفل والطفولة ملحوظة بصفة خاصة في المذكرات سواء في التحكم أو الدعابة فصورة =

وفى مذكرة الزواج[1] لا يتم الزواج ببيرم، بتلك الفتاة الإنجليزية.

أكان ذلك، بسبب الاختلاف فى الدين والحضارة؟

أكان بسبب اغتيال السير لى ستاك فى مصر؟

لا هذا ولا ذاك، وإنما كان السبب، أنه فى كل مرة لا يجد أجر الترام، ولا أجر الحمام، ما أبسط الحياة، تنتهى هكذا، بعد هذا الجهد الوجودى.

وحين يجهده العمل الشاق، الذى لم يخلق له، ينفجر غاضباً لاعناً لا الظروف، ولا القدر، ولا صاحب العمل، وإنما «لعنة الله على الصحافة»[2].

وإذ يغني في الباخرة، تعجب غنائه الفتاتان فتغني إحداهما «وفمها مفتوح، تظهر منه أسنان كبيرة حفراء»[3] إنها لصورة تنطق دعابة وإضحاكا، صورة هذا القبح في فن جميل، هو فن الغناء، وفي ظرف مناسب جداً هو ظرف التعارف والأنس.

نكتفي بهذا القدر من الأمثلة، ونحاول فيما يلي، الحديث عن دلالة الضحك، وعلاقته بالألم، وكنا أشرنا إلى المفارقة بين نص المذكرات، وقراءة الصحافة، وإلى دلالتيْ التهكم، والدعابة.

والحقيقة أن دلالة الضحك، في المذكرات عميقة وهادفه، وأن بيرم

= الضابط الذي يتبول في شوارع مرسيليا على جواد وبعده فاخرة، ضرب من العبث الطفولي وتتم الشاب الشامي برأس الإله وشاربه على قتل الجنرال فورد في بيروت مشابة «عدالة» الأطفال المثالية وكذلك صورة الفرنسى الذي يقدم للعمال البيفتيك والحساء اليست تذكرنا بتقليد الطفل لأعمال الكبار؟ إن هذه الظاهرة جديرة بدراسة خاصة.

والملاحظ أن برفسون ألَمَّ عليها في حديثه عن ظاهرة النابض... فى موضع الضحك.

(١) المذكرات ص، ن ٧٩ ـ ٨٢ .

(٢) م. س ص ٥٧ .

(٣) م. س ص ٤٥ .

التونسي، لم ينتهج سبيل الضحك لمجرد الضحك.

فإذا ضحك القارئ، فإنه لا يلبث أن يدرك مدى الهوة الفاصلة، بين هذا الأسلوب الهزلي، وما يتضمنه، من معانى المعاناة والألم، ومن ضروب النقد والرؤية الصحفية.

غير أن بيرم فى نقله كل هذه المعانى، يحرص على أن يجعل قارئه غير آبه، أى غير متأثر، ليمكنه من الضحك، رغم مأساوية الموضوع.

ونضيف إلى هذا ملاحظة أساسية، تخص شخصية بيرم، أن للضحك وظيفة اجتماعية، كما يقول برفسون، بل لا يكون الضحك إلا من مظاهر المجموعة، وبيرم التونسى المنفى، أى المبعد عن مجتمعه، يرفض هذا الإبعاد ويدخل إلى المجتمع، بفن الضحك، وهذا دليل على أن نصوص مذكراته، إنما هى قبل كل شىء إبداع، بقطع النظر عن مدى واقعيتها، أو ارتباطها بالتجربة، التى عاشها صاحبها، كما أنه دليل على مدى التزام بيرم بقضايا المجتمع، وهو التزام لم يفارقه، حتى فى أحلك لحظات حياته.

ومن مظاهر هذا الالتزام، أن الضحك وسيلة دفاع عن المجتمع، يلجأ إليها كلما أحس بتهديد لمرونة العلاقات بين أفراده، أو بتصلب فى حياته وفكره، وما تهكم بيرم إلا من هذا القبيل.

ففى مثال الفتى اللبنانى جورج، أما كان الأحرى به، أن يسأل عن أسباب الهجرة إلى أمريكا، وهو الفقير من بين عشرات العائلات السورية الفقيرة المهاجرة؟

ما جدوى الانتماء الدينى الطائفى، والحال أن الجميع ينتمون إلى وضع الفقر والغربة عن الديار؟ والشرقى عموماً[1].

هذا الذى يأتى إلى فرنسا، مشحون الدماغ، بأساطير الجنس والنساء، هذه

(١) م.س ص ١٥٩ .

الأساطير التى تتضخم ككتلة الثلج، ثم لا تلبث أن تجعل من تصرفه، أشبه بالإله وسط مجتمع مرن الحركات، فتغزوه نظرات السخرية، بعد أن تصور أنه جاء غازياً، أليس تهكم بيرم منه، نظرة تروم إعادة التوازن، إلى هذا الذهن المنخرم المتصلب؟

إن دلالة هذا التهكم، تظهر خاصة فى صورة ذلك الضابط السورى، الذى يتصرف تصرف الأطفال[1]، إن التهكم فى هذه الأمثلة، سيد الأخلاق والعقليات، والتهكم خاصة فى ظاهر الرسم الهزلى، نفاذ إلى عمق الأشياء، ذلك الرسم، قائم على التأويل أو المحاكمة، إذ يذهب بالتشويه إلى أقصى حد ممكن، وفى ذلك، كبح لجماح الاعوجاج، الذى يشاهده فى المجتمع.

ولكن الألم ـ وكلنا أشرنا إليه مراراً ـ يعتبر من أعمق دلالات الضحك فى المذكرات، إن صورة الفتاة ذات الأسنان الكبيرة الصفراء، وهى صورة مضحكة، مداعبة، تفصح عن تألم بيرم، من بشاعة الفقر فى هذه الأسرة، التى أنس بها وغنى لها وهو المنفى، وصورة تداخل الأحتين بالأفخاذ عند النوم[2] تقطر ألماً إذا تذكرنا حرمة الفتاة العربية، وخدرها وسترها، والصورة تزداد ألماً، عندما يذكر بيرم، نزول الفتى الإسرائيلى الجميل وهو «سكران يترنح»، إنه الفقر والحاجة، فى أجلى مظاهرهما، وأعمق دلالتهما.

هذا هو الألم الذى يعتصر القلب، ولكن الفنان يصوره على هذا النحو الضاحك، الذى أشرنا إليه، ولكنه مُبْكٍ فى الآن نفسه.

وبيرم التونسى نفسه، ما حطه من هذا الألم الضاحك، والضحك الأليم؟ إن الدعابة التى طغت على النصوص الخاصة بحياته، وتجاربه الذاتية، جعلت آلامه، بمثابة المشهد الخارجى، الذى يتفرج عليه، إن شخصيته هنا تزدوج،

(١) م.س ص ١١١.

(٢) م.س ص ٢٠.

وهذا هو ـ معنى التحدى ـ.

وفى مذكرة «الجوع» بعد أن يتضور جوعاً، إلى حد الهذيان، يفاجأ قارئه بحصوله على لقمة غريبة، ولكن الدفء وحده فى بلد مثل ليون، يعد لقمة كبرى لاسيما مع النوم(١).

وفى فرونويل، بعد الفزع والخيبة، يفاجئ القارئ بـ «اللهم زدنى علما» وبعد أن يعانى الأمرين فى عمل شاق، وطعام كريه، وبعد أن يلعن الصحافة، يفاجئنا بربح لم نكن نتوقعه «الأوراق الرسمية» التى أهجم بها على كل مصنع، بلا خوف ولا تردد(٢).

وفى باريس بعد أن يشتغل ساعات فى مطعم، ويسمع ما يكدر خاطره، ثم يفصل من عمله فى أول يوم، يفاجئنا بـ «والأجر خالص كما تقدم»(٣).

وفى مصر، بعد أن تسلب منه قروشه القليلة، ويقف متهماً فى مركز البوليس، فى وطن محرم عليه، يفاجئنا بـ «إلا أن العرس تم بالتمام والكمال»(٤)، أى دعابة هذه وأى نهايات ضاحكة، بل أى رجل حديدى، يتحدى الألم، والمصائب، ثم يخرج ظافراً مبتسماً.

ألا نحس فى بعض الأحيان أنه يسخر منا نحن القراء؟.

يسخر من تألمنا لألمه، ومن عواطف شفقتنا، التى تثيرها تجاربه الصعبة، إنه يورطنا فى هذه المعاناة التى تكبدها، ثم لا يلبث أن يسحب البساط من تحت أرجلنا، فإذا نحن نضحك على أنفسنا(٥)، وإذا نحن على صورة من الضآلة والضعف، إزاء شخصيته العملاقة المتحدية، لعله يقودنا إلى فكرة

---

(١) م.س ص ٢٠ .
(٢) م.س ص ٥٠ .
(٣) المذكرات ص ٥٨ .
(٤) م.س ص ٦٤ .
(٥) م.س ص ٦٤ .

كبرى، هى مبدأ كل مناضل، صلب عنيد، وهى أن الألم والمعاناة والمصائب، مهما كان عتوها، لا تفقده التحدى ولا صلابة النضال، بل لا تزيده إلا عتياً وسخرية منها، ولا تصبغ على حياته إلا طابع «الملحمة».

نعم حياة التونسى ملحمة الألم والتحدى، ولا مكان للمأساة فيها، فلا ينبغى أن يتحدث النقاد عن مأساة بيرم، وإنما عن ملحمته.

إنه عاش تجارب وجودية مبكيه، فلم يبك، وتجرع الآلام، فضحك، وأضحك الناس.

إنه بهذا، يحفظ كرامة الإنسان، وقيمته وعظمته وشرفه، فى أحلك فترات الضعف والإشكال، والضحك تفاؤل، والتفاؤل سمة النضال الأساسية، إن أخطأته، انقلب إلى يأس، فهزيمة.

والضحك فن جميل، وأجمل منه، هذه الإشارات الرشيقة المختزلة، التى تثيره فى قارئ المذكرات، وأجمل من ذلك كله، تسامى هذا الضحك، وإقباله على خوض الحياة وتجاربها المرة، بروح من نشاط الشباب وحيويته[1]، وبنفس المناضل، الذى يجعل الفن، مرادفاً للحياة[2].

هذا الضحك، بقدر ما يسلى القارئ، يعذبه بلطف إلى معايشة ألم هذه النماذج البشرية الكادحة، ومنها بيرم التونسى نفسه، وإلى التعاطف العميق معها، دون أن ينال من شرفها وكبريائها، بقدر ما يدفعه إلى السخط على

(١) لعله من الجدير بالملاحظة أن المؤلف نشر مذكراته وهو فى حوالى الأربعين. فيأمول عنصر العمر فى هذا النشاط المرح.

(٢) للكاتب التونسى على الدوعاجى «١٩٠٩ ـ ١٩٤٩» وهو ممن عاشروا بيرم التونسى كتاب بعنوان: جولة بين حانات البحر المتوسط، شديد الشبه بمذكرات بيرم فى فن الإضحاك، ولكن الفرق واضح فى الدلالات، ونكتفى هنا بالقول إن على الدوعاجى وهو حقاً أستاذ فى فن الضحك، يفتقر إلى عمق الدلالة، بحيث يبقى هزله، أقرب إلى الصيغة الطفولية غير الناضجة.

غيرها، من النماذج المتصلبة، وبقدر ما يكبح فى القارئ نفسه، نزعات التصلب والنشوة، وتبقى به التجربة البشرية، حافزاً على تسامى الإنسان، فى نضاله المرير وعلى التفاؤل المتعقل، بحياة أفضل، ومنزلة أرفع.

■■■

obeikandl.com